الإشكالية المعرفية في تصنيف الفن الإسلامي

قراءة في كتاب:

تصنيف الفنون العربية والإسلامية: دراسة تحليلية نقدية*

تأليف: سيد أحمد بخيت علي**

إدهام محمد حنش***

يحمل مصطلح "التصنيف" في داخله اللغوي العربي والمعرفي الإسلامي إشكاليته القائمة على الانشطار الدلالي بين الكتابة والتأليف (Composition) من جهة المعرفة وأركانها الأساسية (الأدب، العلم، الفن)، والترتيب والتنسيق (Classification) من جهة الفهرسة التي أصبحت اليوم العصب المعرفي (Epistemological) لعلم تصنيف الكتب والمخطوطات في المكتبات العامة والخاصة؛ المعروف بالببليوغرافيا (Bibliography).

وبذا، فإنّ البحث في هذا الموضوع الواسع معرفيّاً والولود بكثرة النظريات والتعديلات التصنيفية يتطلّب الاستحضار الدائم للعلاقة المتوازنة بين حدود الموضوع المعرفية، وحدود الفهرسة التي هي –في الأساس– انعكاس نسقي لتصنيفه المعرفي.

ويمكن القول بأنّ كلّ فهرسة هي –بحدّ ذاتها– نظرية معرفية وتصنيفية مشتركة خاصة من حيث اشتغالها في مجال معين، وربّما في مجالات المعرفة الإنسانية، وعامة من حيث اشتغالها في إطار النظرية العامة للتصنيف؛ ذلك أنّ وجود النظرية المعرفية يُعَدّ شرطاً مؤسّساً وحاكماً قَبليّاً لفلسفة التصنيف الببليوغرافي وطريقة الفهرسة الخاصة بموضوع ما.

---

* علي، سيد أحمد بخيت. **تصنيف الفنون العربية والإسلامية: دراسة تحليلية نقدية**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠١٢م.

** دكتوراه في الآداب من جامعة بني سويف–مصر، أستاذ بقسم المكتبات والوثائق في كلية الآداب، جامعة بني سويف.

*** أستاذ فن الخط وعلم المخطوطات، عميد كلية العمارة والفنون الإسلامية، جامعة العلوم الإسلامية العالمية/ الأردن.
البريد الإلكتروني: idham_61@yahoo.com

تم تسلّم القراءة بتاريخ ٢٠١٢/٧/٦م، وقُبلت للنشر بتاريخ ٢٠١٢/٩/١٤م.

إنّ هذا الذي نُقدِّم به ههنا هو جوهر الفكرة التي يقوم عليها الكتاب، من حيث الرؤية والمنهج؛ إذ يُقدِّم مؤلِّف الكتاب –منذ البداية– ذلك بقوله: "إن علماء التصنيف في مجال المكتبات والمعلومات يؤكدون أهمية تحديد موضوع المجال المراد تصنيفه، وتعرّف حدوده ومعالمه، ورسم علاقاته بغيره من الموضوعات ذات الصلة، وضرورة معالجة هذه المشكلات في التصنيف المتخصّص، وبناء على ذلك فإن تحديد موضوعات العلوم والفنون –على اختلافها– يمثل عنصراً جوهرياً في فلسفة نظم التصنيف الببليوغرافية (تصنيف المكتبات)."[١]

وعلى الرغم من مجيء لفظ "التصنيف" في سياق عنوان هذا الكتاب من غير توصيف، على هذا الوضع من إضافته إلى الفنون العربية الإسلامية، فقد يلبس على قارئه –أول مرّة– فهم معنى التصنيف ودلالته بين التصنيف المعلوماتي المتعلق بالكتب والمؤلَّفات والتصنيف المعرفي المتعلق بهذه الفنون. ومع أنّ هذا العنوان يوحي مباشرة بأنّ الكتاب يتناول التصنيف المعرفي للفنون العربية الإسلامية موضوعاً رئيساً له... إلاّ أنّ قارئ هذا الكتاب يتبيّن –منذ البداية– أنّه يتناول أساساً موضوع التصنيف الببليوغرافي لكتب الفنون العربية الإسلامية في المكتبات العامة والمتخصّصة.

وهذا الموضوع بلا شك موضوع إشكالي في المعرفة المعاصرة، لم تتضح معالمه، ولم تنضج نظريته المشتركة في التأليف بين كلٍّ من التصنيف المعرفي للفنون الإسلامية، وتصنيف كتب هذه الفنون في المكتبات.

ومن هنا، فقد تكمن أهمية هذا الكتاب وجدته المغامِرة في وجود حقل معرفي مشترك الألغام المفهومية والرؤيوية والمنهجية، التي قد تعترض المؤلِّف في تناوله موضوع كتابه هذا، الذي أقلّ ما يمكن أن يقال عنه إنّه كتاب رائد في مجاله، وجديد في مكتبة الفن الإسلامي.

أولاً: عرض محتويات الكتاب:

يتألف الهيكل المعرفي الرئيس للكتاب من ثلاثة أبواب عامة، يتألف كلّ واحدٍ منها من فصول عدّة. هذا، فضلاً عن مقدّمة، وخاتمة، وقائمة طويلة من المراجع المتنوعة بين

[١] علي، **تصنيف الفنون العربية والإسلامية: دراسة تحليلية نقدية**، مرجع سابق، ص١٦.

الكتب والفهارس وأدلة المكتبات وغيرها من المؤلَّفات العربية والأجنبية التي تتناول المجالين: المعرفي المتعلق بالفن الإسلامي، والمعلوماتي (informatics) المتعلق بالمكتبات.

انعقدت مقدّمة الكتاب على ما سمّاه المؤلِّف غاية هذا الكتاب، وهي "تتمثل في رسم صورة للفنون الإسلامية وفلسفتها وخصائصها المميزة لها، وأثر الشريعة الإسلامية واللغة في تحديد مفهومها، وميادينها التي أبدع فيها العرب والمسلمون، بما يساعد على تأسيس نظرية إسلامية لتصنيفها ضمن خطة تصنيف عامة للفنون، تطبق في المكتبات العربية والإسلامية، وتعبر بصورة صادقة عن خصوصيات الإنتاج الفكري العربي والإسلامي في مجال الفنون."[٢]

ودارت حول هذه الغاية مداخل وإشارات عاجلة تنطلق من إشكالية "أن معظم الدراسات الخاصة بتنظيم المعرفة أولت الاهتمام لتصنيف العلوم، في حين لم تحظ الفنون بالقدر الكافي من الاهتمام،"[٣] فتعرضت هذه المقدّمة لإشكاليات عديدة، منها: مفهوم الفن غير واضح الهوية وغير مُحدَّد التعريف كما هو شأن مفهوم العلم. وتداخل موضوع الفن في موضوعات أخرى مختلف فلسفيّاً على إدراجها في منظومة الفنون؛ كالصناعة، والحرفة، والأدب، والرياضة، والترفيه، والسحر، والتكنولوجيا، وطبيعة الفن الاجتماعية الثقافية النسبية والخاصة والمتطورة المختلفة عن الطبيعة الحضارية العامة ذات الثبات النسبي الذي يتصف به العلم مثلاً، وحدود ممارسة الفنون في المنظور الإسلامي وارتباطها بالشريعة الإسلامية، وغير ذلك من الإشكاليات التي تفرض على واضع خطة التصنيف المتخصّصة هذه دراستها بعناية قبل المباشرة بوضعها.

وقد حاول المؤلِّف القيام بهذه الدراسة باستخدام أدوات منهجية عدّة، منها: المنهج الوثائقي، والمنهج التاريخي، والمنهج التحليلي المقارن بين التصانيف الفلسفية والببليوغرافية للفنون، والفلسفات، والخلفيات، والخصائص التي قامت عليها كلّ من الفنون الإسلامية والفنون الغربية على حد سواء.[٤]

---

[٢] المرجع السابق، ص١٥.
[٣] المرجع السابق، ص١٥.
[٤] المرجع السابق، ص١٩.

يضم الكتاب ثلاثة أبواب، حمل أولها عنوان "الفن والفنون"، وهو يشتمل على الفصلين: الأول والثاني. وقد تناول الفصل الأول مصطلح "الفن" ومفهومه في اللغتين: العربية والإنجليزية، وعرض لتطور هذا المصطلح ومفهومه في الفكرين: العربي والغربي على حدّ سواء، في حين تناول الفصل الثاني الإشكاليات الفلسفية بين الفنون الجميلة وغيرها من الموضوعات الأخرى ذات الصلة بها.

وحمل الباب الثاني عنوان "تصنيفات الفنون"، وقد خصّص المؤلِّف له ثلاثة فصول، تناول فيها الفنون وتقسيماتها في التصنيفات الفلسفية (النظرية) التي وضعها الفلاسفة على مرّ العصور، وذلك عن طريق التتبع التاريخي لها. كما تعرّض لأشهر التصنيفات الببليوغرافية في مجال الفنون، وناقش مدى تأثّر أنظمة التصنيف الببليوغرافية بالفكر التصنيفي الفلسفي، فضلاً عن مدى الاختلاف في تناول الموضوعات المختلف عليها فلسفيّاً وتنظيميّاً في بعض أنظمة التصنيف الببليوغرافية العالمية، مع التركيز على نظامي تصنيف "ديوي" و"الكونجرس"، وقد أفرد المؤلِّف جزءاً خاصّاً لمعالجة قسم الفنون في هذين النظامين: وصفاً، ومقارنةً، ونقداً.

أمّا الباب الثالث فهو بعنوان "الفنون العربية الإسلامية"، وقد خُصِّص للحديث عن مفهوم الفن العربي الإسلامي، وخصائصه، وفلسفته، والتوجيهات النوعية والشرعية للفنون الإسلامية، وبعض المحاولات لتصنيف الفنون الإسلامية في خطط التصنيف الفلسفية والببليوغرافية، وكذا المحاولات التي بُذلت على المستوى العربي لتعديل بعض أرقام تصنيف الفنون في نظام تصنيف "ديوي العشري" بما يتناسب والفنون العربية والإسلامية وإنتاجها الفكري.

وللكتاب خاتمة أجملت النتائج التي توصّل إليه المؤلِّف من عمله البحثي في جوانب هذا الموضوع المختلفة؛ يتمثّل أبرزها في اقتراح منهجية، وآلية عمل تُصنَّف على أساسها الفنون بعامة، والفنون العربية الإسلامية بخاصة، بحيث يمكن تطبيقها على المكتبات العربية الإسلامية المتخصّصة في مجال الفنون، أو تلك التي تحوي أقساماً كبيرة أو مستقلة للفنون.

ثانياً: قراءة لموضوعات الكتاب:

١. مفهوم الفنون العربية الإسلامية وفلسفتها وخصائصها

تعدّدت النظريات المفهومية والفلسفية والنقدية المتعلقة بالفن الإسلامي، منذ ظهور مصطلحه أول مرّة في غضون القرن الثامن عشر الميلادي حتى اليوم، على نحوٍ واسع نسبيّاً، صار معه تعريف هذا الفن تعريفاً جامعاً مانعاً صعب التحقيق. وربّما لذلك أسرع المؤلِّف إلى تقديم مفهوم إجرائي لمعالجة هذا الموضوع بعنوان "الفنون العربية الإسلامية"؛ إذ استند إلى المسوّغات التعريفية والفلسفية الآتية:

أ. تعريف (قاموس الفن) للفن الإسلامي بأنّه: "الفن الذي أنتجه الفنانون الذين يدينون بالدين الإسلامي، من المحيط الأطلسي إلى غرب ووسط آسيا والهند، والذي ظهرت بوادره من القرن السابع الميلادي."[٥]

ب. "الفن الإسلامي هو ما وافق مقاصد الشريعة، وإنّ ما خالفها يخرج عن كونه فناً إسلامياً، لخروجه على ضوابط الشرع ومنهاج الإسلام."[٦]

ج. ضم الصفة "العربية" إلى هذا المصطلح، "لما للعرب من دور بارز في ازدهار تلك الفنون، وبخاصة الخط العربي الذي يعد بحق أرقى الفنون العربية الإسلامية على الإطلاق، إضافة إلى أن الفنون التي اتخذت بعد الفتوحات الإسلامية... كانت ذات طابع خاص يتميّز بوحدته الفنية والتعبيرية، والتنوع في الأساليب التي لا تتعارض مع تلك الوحدة، فكأنما هو شبيه باختلاف اللهجات في اللغة الواحدة."[٧]

ومن هنا، يَعُدّ المؤلِّف مصطلح "الفن العربي الإسلامي" أفضل المصطلحات التي أُطلِقت على هذا الفن؛[٨] نظراً لتأثّره -إلى حدّ كبير- بما سمّاه "فلسفة الفن في الإسلام" التي تقوم على "عقيدة التوحيد" التي أثّرت على نحوٍ فاعل في تكوّن خصائص هذا الفن

[٥] المرجع السابق، ص١٩٤.
[٦] المرجع السابق، ص٢٠٦.
[٧] المرجع السابق، ص١٩٥.
[٨] المرجع السابق، ص١٩٥.

العامة: التجريد، والبُعْد عن المحاكاة والتجسيم، وكراهية تصوير الكائنات، وتلازم الجمال والمنفعة، وموافقة مقاصد الشريعة.[٩]

٢. التوجهات النوعية والشرعية للفنون العربية الإسلامية

ومن أبرز أنواع هذه الفنون المعروفة في عالمنا المعاصر: الفنون الزخرفية (الأرابسك)، وفن الخط العربي. وفنون العمارة الإسلامية. والفنون التطبيقية، ويمكن تصنيفها إلى: خزفية، وفخارية، ومعدنية، وخشبية، وزجاجية. وفنون النحت والتصوير. وفنون الموسيقى، والغناء، والرقص. وفنون الأداء والتمثيل.

أمّا أبرز التوجهات الشرعية الضابطة لما يدخل من هذه الفنون وما لا يدخل منها في "تصنيف الفنون العربية الإسلامية" فهي: الإباحة، والكراهة، والتحريم،[١٠] التي تفاوتت في التطبيق على تلك الفنون.

٣. التصنيفات الفلسفية للفنون العربية الإسلامية

يبدو أنّ المؤلِّف لا يَعُدّ ما عرضه سابقاً من أنواع الفنون العربية الإسلامية تصنيفاً لها؛ إذ عمد في الفصل الثاني من الباب الثالث في كتابه إلى عرض "بعض المحاولات لتصنيف الفنون العربية الإسلامية في خطط التصنيفات الفلسفية، والببليوغرافية (تصانيف المكتبات). والغرض الأساس من استعراض هذه التصنيفات يتمثل في الوقوف على حدود الموضوعات الداخلة في الفنون الإسلامية، والمنهج المتبع في تقسيمها وترتيبها، سواء على مستوى الترتيب الرأسي أم الترتيب الأفقي."[١١] ومن التصنيفات الفلسفية التي عرضها المؤلِّف:

أ. تصنيف الفاروقي (إسماعيل، ولويزا) الذي يقسم الفنون الإسلامية إلى الأقسام الأربعة الآتية: فنون الخط، الفنون المكانية، الفنون الزخرفية، فن الصوت.[١٢]

---

[٩] المرجع السابق، ص١٩٨-٢٠٦.
[١٠] المرجع السابق، ص٢١٤-٢٢٤.
[١١] المرجع السابق، ص٢٢٧.
[١٢] المرجع السابق، ص٢٢٨.

ب. تصنيف أسامة القفاش الذي صنَّف هذه "الفنون من خلال الرؤية الإسلامية، وتأثيرها في الحواس، فقسمها إلى فنون: سمعية، وبصرية، وسمعية بصرية، ولغوية."[١٣]

وقد انتقد المؤلِّف هذين التصنيفين، وعاب عليهما إغفالهما "قسماً كبيراً من الفنون الأكثر انتشاراً وقبولاً ووفرة في العالم الإسلامي، ألا وهي الفنون التطبيقية التي تشمل الحرف والصناعات اليدوية."[١٤] وعاب على التصنيف الثاني إغفاله "أيضاً مجموعة الفنون الحديثة من سينما، وتلفزيون، ومسرح، إلخ"، "كما يعاب على هذا التصنيف أيضاً أنه وزع الفنون الأدبية بين الفنون السمعية، والفنون البصرية، والفنون اللغوية."[١٥]

٤. التصنيفات الببليوغرافية للفنون العربية الإسلامية

وقد أعقب مؤلِّف الكتاب كلّ تلك التصنيفات المعرفية أو الفلسفية للفنون الإسلامية ببعض تصانيف مكتبات الفنون العالمية التي اشتملت على خارطة ببليوغرافية لمؤلفات الفنون الإسلامية، فضلاً عن بعض التعديلات التصنيفية المتعلقة بهذا الموضوع على تصنيف "ديوي العشري" الشهير.

ونظراً لتفاوت هذه التصنيفات والتعديلات في تغطية مواد الفن الإسلامي وموضوعاته على نحوٍ واضح كبير؛ سيقتصر الحديث في ما يأتي على أبرز هذه التصنيفات وأكبرها:

أ. تصنيف مكتبة الفنون الجميلة بجامعة هارفارد:

"ويعد هذا التصنيف من أشمل التصنيفات فيما يخص الفنون الإسلامية، فهو مفصل إلى أبعد حد، كما أنه يتبع المنهج الحديث في التصنيف الذي يعتمد أساساً على أسلوب التحليل والتركيب لتصنيف الموضوعات المركبة والمعقدة."[١٦]

---

[١٣] المرجع السابق، ص٢٣٣.
[١٤] المرجع السابق، ص٢٣٣-٢٣٥.
[١٥] المرجع السابق، ص٢٣٥.
[١٦] المرجع السابق، ص٢٤٧.

يُوزِّع هذا التصنيف الفنون الإسلامية في ست فئات، طبقاً لمجموعة الخصائص التي تجمع بين عناصر كلّ فئة منها، على الوجه الآتي:

(A): فن العمارة، والطرز المعمارية.

(B): الخرائط، والرسوم التوضيحية، والرسوم البيانية في أشكالها الإسلامية.

(C): فنون الكتاب، والمخطوطات، بما في ذلك: القرآن الكريم، وفن الخط، وتجليد الكتب، والتلوين، والطباعة، والصور واللوحات والرسوم، والطباعة بالإستنسل.

(D): التصوير، وفنون الجرافيك.

(E): الفنون القابلة للحمل والنقل، مثل: صناعة الفخار، والمعادن، وأشغال الخشب، والزجاج، والنسيج، والجلود، والخزف (السيراميك)، والجص المزخرف، وأشغال العاج والعظم.

(F): التصنيفات الخاصة بالأعراق البشرية الإسلامية، والاستشراق.[١٧]

ب. تصنيف إيكونكلاس iconclass الهولندي:

وهو تصنيف مصمَّم على نحوٍ خاص "للأيقونات التي تتخذ لتمثيل موضوع ما عن طريق الرسم أو التصوير الزيتي أو النحت."[١٨] ويعمد هذا التصنيف إلى وضع "الأيقونات الإسلامية" في الفئة (١٢- Islam)، المتفرعة من (١٢- الديانات غير المسيحية)، المتفرعة من القسم الرئيس (١- الدين والسحر).

ج. تصنيف ساردار:[١٩]

وضع هذا التصنيف الفن الإسلامي بين الفرعين: (C) و (D)، ضمن القسم الرئيس (S: الثقافة والحضارة) على النحو الآتي:[٢٠]

[١٧] المرجع السابق، ص٢٣٧-٢٤٦.

[١٨] المرجع السابق، ص٢٤٧.

[١٩] ضياء الدين سردار: باحث هندي مسلم في مجال المعلومات. وقد نشر تصنيفه هذا عام ١٩٧٩.

[٢٠] علي، **تصنيف الفنون العربية والإسلامية: دراسة تحليلية نقدية**، مرجع سابق، ص٢٥٣-٢٥٥.

(C: الثقافة – الفن): فلسفة الفن الإسلامي. أساليب الفن الإسلامي. التأثير والمقارنة بين الفن الإسلامي وفنون الغرب. الفنون الجميلة – فن العمارة: المساجد؛ عمارة المساجد. تخطيط المدن – المدن المقدسة: مكة، المدينة، القدس، آثار أخرى. الخط. التصوير: المنمنمات، التصوير على الحوائط والأسقف. السيراميك. النسيج. الملابس. التطريز. السجاد. الجواهر. أشغال المعادن. الدروع. الطلاء بالمينا. النقش على الخشب. تجليد الكتب. المشغولات الجلدية. الموسيقى. الآلات الموسيقية.

(D: الحضارة): الفنون التطبيقية. الحرف اليدوية. صناعة الورق. الطهي. الرياضيات والألعاب. الفروسية. الفنون العسكرية. الشطرنج.

د. تصنيف سجّاد الرحمن: [٢١]

"ويخصص سجاد الرحمن القسم (R: الحضارة الإسلامية والثقافة) لتصنيف العلوم والفنون الإسلامية والعادات والتقاليد،"[٢٢] على نحوٍ لا يختلف كثيراً عمّا ورد في التصنيف السابق من حيث عرض مواد الفن الإسلامي وموضوعاته.[٢٣]

٥. تصنيف الفنون العربية الإسلامية

يهدف هذا الكتاب[٢٤] إلى اقتراح أسس ومبادئ لبناء خطة تصنيف ببليوغرافي مستقبلية لمنظومة الفنون العربية الإسلامية. وتنقسم هذه الأسس والمبادئ إلى: عامة، مثل: الدين الإسلامي، والحضارة الإسلامية... وخاصة، مثل: فلسفة الفن الإسلامي وخصائصه البارزة؛ كالتوحيد، ومقاصد الشريعة، والتجريد، وغيرها.

ولكنّ هذه الأسس والمبادئ (العامة، والخاصة) لم تَحِد عن جوهر المعادلة المتوازنة بين ما هو معرفي وما هو ببليوغرافي في التصنيف؛ ما حفز المؤلِّف إلى محاولة تصنيف الفنون

---

[٢١] سجّاد الرحمن: عالم هندي مسلم، أستاذ المكتبات المعلومات في عدد من الجامعات الدولية، حاصل على شهادة الدكتوراه في علوم المكتبات من جامعة إنديانا–الولايات المتحدة عام ١٩٨٥

[٢٢] علي، **تصنيف الفنون العربية والإسلامية: دراسة تحليلية نقدية**، مرجع سابق، ص٢٥٧.

[٢٣] المرجع السابق، ص٢٥٧–٢٦٠.

[٢٤] المرجع السابق، ص٢٧٩–٢٩٢.

العربية الإسلامية معرفيّاً من جديد، لتكون منطلقاً لخطة التصنيف الببليوغرافي المستقبلية. وطبقاً لذلك يرى المؤلف "أنه من المفيد الاعتماد على أساس خاص بالأمة الإسلامية لتصنيف فنونها، ويتمثل هذا الأساس فيما يمكن تسميته بالأساس القيمي، الذي نستطيع من خلاله التمييز بين فئتين من الفنون العربية الإسلامية؛ أولاهما: تلك الفنون التي اكتسبت صفة إيجابية فأقبل عليها العرب والمسلمون وأبدعوا فيها، مما أثّر بدوره في غزارة الإنتاج الفكري العربي الإسلامي لها، وتشمل هذه الفئة فنون العمارة، والخط، والزخرفة، وفنون الكتاب، والفنون التطبيقية بأنواعها المختلفة. أمّا ثانيتهما فهي تلك الفنون التي اكتسبت صفة سلبية، ولم تحظ بالقدر نفسه الذي حظيت به الفنون السابقة، وتتمثل هذه الفئة بشكل خاص في فني النحت، والتصوير. ومن البدهي أن تقدم الفنون الإيجابية على الفنون السلبية في خطة التصنيف المقترحة. أمّا بقية الفنون الأخرى كفنون الغناء، والموسيقى، والتمثيل، وغيرها فيمكن أن تتوسط الفئتين السابقتين."[٢٥]

ثالثا: مراجعة نقدية للكتاب:

إنّ هذا الأساس القيمي الذي يدعو المؤلِّف إلى اعتماده لتصنيف الفن الإسلامي؛ معرفيّاً وببليوغرافيّاً هو أول الملحوظات التي يمكن أن يعترض بها الببليوغرافيون –قبل المعرفيين– على صعوبة قبوله ليكون أساساً لتصانيف كتب الفنون الإسلامية في المكتبات؛ ذلك أنّ هذا الأساس يتصل بمقاصدية الفن الإسلامية التي لا تزال تمثّل إشكالية كبيرة جدّاً في رسم مفهوم الفن الإسلامي وحدوده المعرفية.

وبذلك؛ يكون هذا التصنيف أشبه بتلك التصنيفات الموضوعية الخارجة على طبيعة الفن وخصوصيته المعرفية، من حيث الجدل الشائك حول الأساس الفلسفي الرمزي لتصنيف الفن الإسلامي، وهو الأساس الذي يعبّر عنه –مثلاً– تيتوس بوركهارت[٢٦] بأنّ ثمة أبعاداً ثلاثة يمكن أن يقوم عليها الفن الإسلامي؛ هي: الظاهر، والباطن، والروح. فالظاهر يتمثّل في الشكل الفني الخارجي المتكوّن من الخط والمساحة والكتلة وغير ذلك

[٢٥] المرجع السابق، ص٢٨٨.

[26] Burkhart, Titus: **Art of Islam; language & Meaning**, London: World Wisdom,2009,p125.

من العناصر القابلة للوصف والتاريخ، والباطن يتمثّل في القيم التي يعبّر عنها هذا الظاهر من الوحدة والتنوع والأصالة وغير ذلك من القيم المتصلة بفلسفة الجمال. أمّا الروح فهي السر أو الكنه الماورائي المتصل بالحقيقة المطلقة المنعكسة حضوراً فطريّاً في كلّ الأشياء بعامة؛ ويتجلّى حضورها الرمزي الفاضل في الفنون المقدسة، ومنها الفن الإسلامي بخاصة.

وعلى هذا الأساس الرمزي صُنِّفت الفنون الإسلامية إلى: فنون جلالية صادرة عن المسجد بوصفه مركز العمل الديني الإسلامي؛ كفن ترتيل القرآن، وفن العمارة المقدسة، وفن الخط العربي... وإلى فنون جمالية تتمتع برعاية البلاط والمجتمع كلّه؛ كالموسيقى، والشعر، والمنمنمات.[٢٧]

ومن هنا، يمكن القول بأنّ المؤلِّف حاول في هذا الكتاب أن يقترح منهجية وآلية عمل خاصة لتصنيف الفن الإسلامي ببليوغرافيّاً، يمكن تطبيقها في المكتبات العربية والإسلامية المتخصّصة في مجال الفنون، أو في تلك المكتبات التي لديها أقسام كبيرة أو مستقلة للفنون... .[٢٨] لكنّ ثمة شكوك –من وجهة نظرنا على الأقل– في تحقيق نجاحات علمية معتبرة ومقنعة في بناء هذا التصنيف الببليوغرافي على أساس قوي متين راسخ من "التصنيف المعرفي للفن الإسلامي". ولعلّ السبب الرئيس في هذا الانزياح عن تحقيق المراد يكمن في الملحوظات العامة الآتية:

١. ميل الكتاب نحو الاشتغال بتحليل هذا الموضوع ونقده في التصنيفات الببليوغرافية (تصانيف المكتبات) أكثر بكثير من اشتغاله التحليلي والنقدي في التصنيفات المعرفية أو الفلسفية بتعبيره[٢٩] للفنون الإسلامية.

٢. انسياق جهود المؤلِّف في اشتغاله الببليوغرافي هذا وراء اهتمام أغلب تصانيف المكتبات بالفن/ الفنون الجميلة (وَفق المنظور الغربي) على وجه العموم أكثر بكثير من

---

[٢٧] نصر، سيد حسين. **العلاقة بين الفن الإسلامي والروحانية الإسلامية**، ضمن: **مقالات في الفنون الإسلامية**، الأردن: معهد الفنون الإسلامية التقليدية، جامعة البلقاء التطبيقية ومؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي، د.ت، ص١٢٥.

[٢٨] علي، **تصنيف الفنون العربية والإسلامية: دراسة تحليلية نقدية**، مرجع سابق، ص٢٦.

[٢٩] المرجع السابق، ص٢٢٧–٢٧٧.

اهتمامها بالفن/ الفنون العربية الإسلامية على وجه الخصوص؛ ما اضطره إلى تخصيص أكثر من نصف مساحة كتابه الورقية (نحو ١٨٨صفحة) وثلثي بنيته التخطيطية الدراسية التي تقع في بابين وخمسة فصول من مساحة الكتاب؛ للبحث في المفهوم العام للفن والفنون الجميلة، ودراسة التصنيفات الفلسفية والببليوغرافية للفن والفنون الجميلة، على نحوٍ تفصيلي موسّع يفوق مرّات عدّة حجم البحث العلمي، وشكل الدراسة المنهجية الحاصلَين في الباب الأخير؛ وهو الباب الثالث (ثلاثة فصول) من أبواب الكتاب الثلاثة.

٣. عرض هذا الباب موضوع الفن الإسلامي بطريقة بدا فيها كأنّه مقطوع الجذور المعرفية والتصنيفية عن التأليف العربي والإسلامي القديم. فلم يتطرّق -مثلاً- إلى تصنيفات ابن النديم وطاش كوبري زادة وغيرهما لبعض أجناس الفن الإسلامي، على الرغم من رجوعه[٣٠] إلى حديث طاش كوبري زادة عن الرقص، وحديث غيره من العلماء المسلمين عن الموسيقى، ومحاولته إسقاطهما على منظومة الفنون العربية والإسلامية.

٤. نحا المؤلِّف منحى يُظهِر أنّ ثمة إشكالية في إدراك تاريخ هذا الموضوع وتحولاته المعرفية الحديثة التي تقوم على حقيقة أنّ "الفن الإسلامي" من حيث هو مفهوم ومصطلح وموضوع وبحث ونظرية وعلم؛ إنّما هو صناعة استشراقية غربية حديثة بامتياز.

٥. عدم استيعاب الكتاب لمحاولات التصنيف المعرفي والببليوغرافي الكثيرة التي قام بها علماء الفن الإسلامي المختلفون في اهتماماتهم التاريخية والآثارية والفلسفية والمعلوماتية وغيرها، التي كان من الممكن؛ بل من المفترَض أن تكون أرضيةً خصبةً لمؤلِّف هذا الكتاب عند بحثه في إمكانات تصنيف الفن الإسلامي؛ معرفيّاً، وببليوغرافيّاً.

رابعاً: تساؤلات:

قد تثير الملحوظة الأخيرة الآنفة الذكر بخاصة، وبجمل تلك الملحوظات العامة، بعض التساؤلات المتعلقة بأسباب عدم توفيق المؤلِّف في بناء مشروع كتابه المتمثّل في "وضع أسس ومبادئ يمكن الاعتماد عليها في بناء خطة تصنيف مستقبلية، تحكم منظومة

[٣٠] المرجع السابق، ص٢١٧.

الفنـون العربيـة والإسـلامية، وتراعـي الاحتياجـات الخاصـة بهـا، والفلسـفة الـتي قامـت عليها."[٣١] أو ربّما يمكن إعادة التساؤل الرئيس بعبارة أخرى مباشرة؛ هي: هل نجح المؤلِّف في وضع أول هذه الأسس والمبادئ التي كان من المفترض أن يوليها جلّ عنايته، ألا وهو التصنيف المعرفي للفن الإسلامي؟

لعلّ النفي هو الجواب الذي يُقدِّمه تعويل المؤلِّف–على نحوٍ تفصيلي كبير– على التصنيفات المعرفية والببليوغرافية الغربية للفن الغربي؛ مفهوماً وإنتاجاً وثقافةً وعرضاً، وتجاوزه؛ بل ربّما عدم التطرق إلى أعمال علماء الفن الإسلامي وجهودهم المعرفية والببليوغرافية في هذا المجال، ومن ثم استيعابها وتجاوزها.

لقد بدا التصنيف المعرفي للفن الإسلامي مشكلة الكتاب العويصة، وإشكاليته الحبلى بالقلق المعرفي والتساؤلات الفضولية عن العوامل المؤثّرة سلباً –من وجهة نظرنا على الأقل– في عدم وصول المؤلف إلى تصنيف معرفي لهذا الفن، مناسب لتحقيق مشروعه العلمي في بناء خطة تصنيف ببليوغرافي مستقبلية، على الوجه الأكمل والأمثل. فالكتاب بحاجة إلى تعميق المعالجة التحليلية النقدية لبعض موضوعات الفن الإسلامي الأساسية؛ كمفهوم هذا الفن، ومصطلحه، وحدوده المعرفية المتمثّلة في ما يمكن أن نُطلِق عليه اسم "أجناس الفن الإسلامي وأنواعه"، بوصفها المادة العلمية النسقية التي يمكن أن يقوم عليها التصنيف المعرفي للفن الإسلامي. وثمة حاجة ماسّة إلى تفحّص المحاولات المبكّرة لتصنيف الفن الإسلامي معرفيّاً؛ ليكون –أولاً وقبل كلّ شيء– منطلقاً فلسفيّاً وأساساً منهجيّاً لأيّ تصنيف آخر لهذا الفن؛كالتصنيف الوثائقي (documentary) الذي غالباً ما يتعلق بعرض مجموعات هذا الفن في المتاحف والمزادات والمعارض، والتصنيف الببليوغرافي الخاص بتنسيق موضوعات الفن الإسلامي ومواده العلمية في الكتب، وترتيبها في المكتبات العامة والخاصة.

ويمكن تأشير البدايات التاريخية الأولى لهذه المحاولات مع الطلب الأوروبي الذي نشط منذ القرن الثامن عشر الميلادي في الإقبال على اقتناء التحف (Antiques) الفنية

[٣١] المرجع السابق، ص٢٧٩.

الإسلامية، التي تمثّل ثروةً ثقافية ومالية حرص المالكون والمقتنون والمتذوقون الأوروبيون؛ أفراداً ومؤسساتٍ ودولاً، على استعراضها في معارض عامة وخاصة، وعرضها في المتاحف والمكتبات، فضلاً عن تداولها الاقتصادي؛ بيعاً وشراءً في المزادات، وغير ذلك من الأنشطة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية؛ الأوروبية، والأمريكية. وقد تجلّت هذه المحاولات في بعض المقالات الاستشراقية الأولى المنشورة في بعض المجلات الفنية الصادرة بأوروبا وبعض الدول العربية، فضلاً عن الكتب المتنوعة في محتوياتها الخاصة والعامة بخصوص مجموعات الفن الإسلامي ومعارضه المتعاقبة حول العالم، حتى أخذت حركة التأليف في الجوانب المختلفة لهذا الموضوع تكثر وتنضج وتتسق منذ القرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن العشرين باتجاه الكتابة التاريخية العامة –في الغالب– عن مجموع الفنون الإسلامية، والخاصة عن بعض الفنون الإسلامية، التي تشكّل، في غضون القرن العشرين، تصنيفها المعرفي العام في هذه الكتابات والمؤلَّفات، في صنفين أساسيين، هما:

- الفنون الرئيسة؛ كالعمارة، والخط، والزخرفة، والتصوير، وغيرها من الفنون الجميلة الإسلامية.

- الفنون الفرعية المتعلقة بالمعدنيات، والزجاجيات، والقماشيات، وغيرها من الصنائع (Grafts) الفنية للمسكوكات والمخطوطات والتحف، وغير ذلك من التطبيقات الفنية والتقنية والأسلوبية في المصنوعات التي عَدَّها كثير من المؤرخين جزءاً من علم الآثار (Archaeology)، بوصفه أبرز العلوم الوثائقية التي تدخل الفنون الإسلامية في بنيتها المعرفية، ويجب أن تقوم على حقيقتين من حقائق الفن الإسلامي؛ إحداهما: مادية فنية، والأخرى: معنوية تأليفية. وتتمثّل الحقيقة الفنية في الأعمال والمواد والقطع والتحف الفنية، في حين تتمثّل الحقيقة التأليفية في الكتابات والمؤلَّفات والمقالات المنشورة حول هذه الأعمال والمواد والقطع والتحف الفنية.[٣٢]

وعلى الرغم من تأكيد المؤلِّف –في هذا الكتاب– على أنّ عمله الرئيس يعتمد على الإنتاج الفكري المتعلق بالفنون بعامة، والفنون العربية الإسلامية بخاصة، إلاّ أنّه لم ينتبه

[٣٢] داغر، شربل. **الفن والشرق**، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٤م، ص٢١١.

لأهم المعطيات العلمية المتعلقة مباشرة بهذا الإنتاج الفكري الخاص بالفن الإسلامي، ولم يحفل بتلك الببليوغرافيات المعرفية العديدة التي صنعها المستشرقون لمواد الفن الإسلامي وموضوعاته العامة والخاصة.[٣٣]

تمثّل هذه الببليوغرافيات أهمية معرفية وتصنيفية قصوى لمثل هذا العمل التأليفي المتخصّص في تصنيف الفن الإسلامي. ولعلّ أبرز هذه الببليوغرافيات التي كان من الواجب المعرفي والمنهجي على مؤلِّف هذا الكتاب مراجعتها والاستفادة منها: العمل التصنيفي الهائل الذي قام به مؤرخ العمارة والفنون الإسلامية الأبرز في هذا المجال؛ المستشرق الإنكليزي أ.ك. كرزويل (Creswell) (ت ١٩٧٤م) وبعض تلامذته الذين أكملوا مشروعه من بعده في جمع كلّ ما كتب عن العمارة والفنون والصنائع الإسلامية وتصنيفها حتى عام ١٩٨٠م تقريباً؛ في أول وأكبر وأهم وأعم وأشمل وأجمع وأضخم فهرس عالمي من نوعه.[٣٤]

وما يعنينا مباشرة من هذا الفهرس الكبير هو التصنيف المعرفي أو الموضوعاتي الذي وَزَّع كرزويل كلّ تلك الكتابات من الكتب والمقالات وغيرهما في ضوئه، خاصة أنّه استخدم الإخراج المعجمي والموسوعي لتوزيع المادة العلمية في الصفحة الواحدة على شكل عمودين مرقمين، وفهرس محتويات كلّ مجلد من كتابه هذا برقم العمود الذي في صفحاته، بعد أن وَزَّع كلّ محتويات الكتاب من عناوين تلك المؤلَّفات على قسمين عامين؛ أولهما خاص بالعمارة الإسلامية. والثاني خاص بالفنون والصناعات الإسلامية.

وقد صُنِّفت المؤلَّفات المتعلقة بموضوعات العمارة الإسلامية (القسم الأول) على رؤوس الموضوعات الآتية:

١. المؤلَّفات التاريخية العامة.

٢. المؤلَّفات المتنوعة عن موضوعات العمارة وعناصرها؛ كالقبة وغيرها.

[٣٣] انظر: سوفاجيه، جان وزميله. **مصادر دراسة التاريخ الإسلامي: دليل ببليوغرافي**، ترجمة: عبد الستار الحلوجي وزميله، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨م.

[٣٤] صدر هذا العمل التصنيفي الموسوعي الرائد والكبير عن الجامعة الأمريكية في القاهرة في ثلاثة مجلدات ضخمة بعنوان: (A Bibliography of the Architecture: Arts and Crafts of Islam).

٣. المؤلَّفات المتعلقة بالعمارة في البلدان الإسلامية المختلفة، مرتّبة ترتيباً هجائياً حسب الحرف الأول لاسم كلّ بلد، بدءاً بالجزيرة العربية، وانتهاءً بتركيا العثمانية.

ثمّ عمد كرزويل إلى تصنيف المؤلَّفات المتعلقة بالعمارة في هذه البلدان الإسلامية إلى رؤوس أقلام فرعية؛ هي:

أ. المؤلَّفات المتعلقة بالصيانة والترميم.

ب. المؤلَّفات المتعلقة بالتنقيبات الآثارية عن العمارة الإسلامية، مرتّبة حسب تواريخها أولاً، ثمّ تقاريرها المبكّرة، ثمّ تقاريرها اللاحقة، وهكذا.

ت. المؤلَّفات العامة عن العمارة الخاصة ببعض المدن الواقعة في هذا البلد، مرتّبة حسب الحروف الهجائية الأولى لأسماء هذه المدن.

ث. المؤلَّفات الخاصة ببعض موضوعات هذه العمارة؛ كالتصوير بالفريسكو، والحدائق الهندية، وغيرهما.

أمّا القسم الثاني الذي يتضمّن المؤلَّفات المتعلقة بالفنون والصناعات الإسلامية، فقد جاء تصنيف المؤلَّفات فيه وَفق الترتيب الآتي:

١. المؤلَّفات العامة في موضوعاتها المعمارية.

٢. المؤلَّفات العامة عن الفنون والصناعات في كلّ بلد، مرتّبة ترتيباً هجائياً يبدأ بالجزيرة العربية وينتهي بتركيا.

٣. المؤلَّفات حسب نوع الفن ونوع الصناعة، وهي مرتّبة هجائياً على النحو الآتي: الأسلحة، الأسطرلاب، التجليد، فن الخط وعلم الخطوط القديمة، الخزف، الأزياء، المينا، التزييف والنقل والاستنساخ، الحدائق، الزجاج والبلور الصخري، الشعارات والرنوك، العاج، حجر اليشم (Jade)، الحلي والجواهر، اللاكيه، الجلد، الخرائط، المعادن، الأدوات الموسيقية، الزخرفة، التصوير، الورق، أوراق اللعب، خيال الظل، الخيال، الحجر والرخام، النسيج.

ويضع كرزويل تحت هذا العنوان (النسيج) كلّ المؤلَّفات المتعلقة بأعمال النسيج من المصنوعات والمواد والطرق وغيرها فروعاً تصنيفية للنسيج؛ وهي: السجاد، والقطن، والصبغات والصباغة، والتطريز، والدنتيلا (Lace)، والكتان، والحصير، والشيلان الكشميري، والحرير، والطراز، والصوف.

٤. المؤلَّفات الخاصة بأثر الفنون الإسلامية في الغرب، بدءاً بالمؤلَّفات العامة، فالمؤلَّفات الخاصة بأثر كلّ نوع من أنواع الفنون الإسلامية المذكورة آنفاً، حسب الترتيب الآتي: العمارة، فالتجليد، فالخشب...، انتهاءً بالأرقام العربية والحروف الكوفية.

٥. المؤلَّفات الخاصة بأثر الفنون الإسلامية في الشرق.

٦. المؤلَّفات الخاصة بالفنون الإسلامية ذات الصلة بالتجارة والعلاقات المتبادلة في العصور الوسطى.

وقد جاء المجلد الثالث من الكتاب ليستدرك على المجلدين: الأول والثاني؛ بإضافة المؤلَّفات المتعلقة بموضوعين من موضوعات العمارة والفنون والصناعات الإسلامية، فضلاً عن مؤلَّفات أخرى فيها. وهذا الموضوعان هما: الفسيفساء، والجص. وقد صُنِّفت المؤلَّفات المتعلقة بكلٍّ منهما على النحو الآتي: المؤلَّفات العامة، والمؤلَّفات الخاصة بكلّ بلد من البلدان الإسلامية، مرتّبة حسب الحروف الهجائية، بدءاً بالجزيرة العربية، وانتهاءً بتركيا.

وتأسيساً على ما سبق، يمكن القول بأنّ إشكالية التصنيف المعرفي للفن الإسلامي ظلّت هي مشكلة الكتاب الأساسية التي لم يشتغل عليها المؤلِّف اشتغالاً علميّاً عميقاً.

خامساً: تصنيف مقترح:

ولكي لا تقف هذه المراجعة عند هذا الحدّ المبتور؛ قد يكون من نافلة القول في ختامها عرضُ مقترحٍ لما يمكن أن يُعَدّ تصنيفاً معرفيّاً -نوعاً ما- للفنون الإسلامية، يصلح أن يكون-إلى حدّ ما- أساساً مرجعيّاً خاصّاً بتصنيف مؤلَّفات هذه الفنون العامة والمتخصّصة في مجال المكتبات.

ينطلق التصنيف المقترح من النسق المعرفي للعمارة والفنون والصناعات الإسلامية في التراث الفكري العربي؛ إذ يقوم هذا النسق على أجناس وأشكال وأساليب وتقنيات ورؤى وآداب تميِّز الفن العربي الإسلامي عن غيره من الفنون الإنسانية؛ الدينية والحضارية معاً.

ويمكن أن نتبيّن حدود هذا النسق في دائرة واسعة متكاملة من المجالات والموضوعات والمؤلَّفات الجمالية والهندسية والتقنية والأسلوبية والتواصلية التي تتناول:

١. فن العمارة الإسلامية وتصميمها الداخلي.

٢. فنون الكتاب الإسلامي المتمثّلة في الخط، والزخرفة، والتصوير، والتذهيب، وغيرها.

٣. الصناعات الفنية الإسلامية المتعلقة بالخشب، والحجر، والمعدن، والنسيج، والزجاج، وغير ذلك من المواد والخامات.

وفي حال عددنا ذلك إطاراً عامّاً لتصنيف الفنون الإسلامية معرفيّاً، فإنّ الإطار الخاص لتصنيف الآراء والأفكار والنظريات والموضوعات الجمالية، والأشكال والرسوم والصور الفنية المتنوعة الواردة في كتب الفنون الإسلامية ومؤلَّفاتها المتنوعة ببليوغرافيّاً؛ يمكن أن يحدَّد في ضوء تصنيف هذا التراث الفكري الفني من حيث دلالاته على أدبه النقدي والمعرفي (المؤلَّفات) المتعلق على وجه الخصوص بعلم الفن الإسلامي، وتاريخه، وفلسفته وفقهه، وتقنياته، وأساليبه أو مدارسه... على شاكلة الفهرسة الأولية، التي يمكن تصميمها على نحوٍ يتيح تصنيف العمارة الإسلامية -على سبيل المثال لا الحصر- إلى الفروع المعرفية الآتية: هندسة العمارة (العلم)، تاريخ العمارة، فلسفة العمارة وفقهها، صناعة البناء (التقنيات، والأساليب).